٦ ـ الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزبل

بقلم الدكتور محمد بهجت

إن ما يعيب بعض المصورين المعاصرين عندما يريدون تصوير خيول تعدو هو أنهم يمثلونها فى أوضاع أخذت فى لمح البصر .

سباق إپسوم (للمصور جريكول)

انتُقِد جريكول (Gericault) لأنه صور بلوحته الموجودة باللوفر وهى « سباق إپسوم » خيوله تعدو وقد تمطّطت جسومها حتى لتكاد تلامس بطونها الأرض ، راميـة بقوائمها الأمامية إلى قدام وبالخلفية إلى وراء فى نفس اللحظة . ويقال إن لوح الفوتغرافية الحساس لا يعطى مثل هذه النتيجة . وحقيقة ما نرى فى التصوير الفوتغرافى هى أنه عند ما تكون قوائم الحصان الأمامية إلى قدام يكون للقوائم الخلفية التى دفعت الجسم إلى الأمام بطبيعة وضعها وقت التجمع تحت الجسم لإعادة الكرة ، فتكون بذلك القوائم الأربع متجمعة مع بعضها فى الهواء فى وقت معين ، ويبدو الحيوان كأنه يقفز من على الأرض وكأنه بغير حَرَاك وهو فى ذلك الوضع .

« وأعتقد الآن أن جريكول هو المصيب وأن العدسة هى المخطئة لأن خيوله تظهر كأنها تعدو . ويتبين ذلك عنـد ما يتتبع الناظر اللوحة من اليمين إلى الشمال ، فيرى أول ما يرى القوائم الخلفية تنجز ذلك الجهد الذى تنشأ عنه القوة الدافعة العامة ، ثم يرى بقية الجسم ينبسط ويتمطط ، وأخيراً يرى القائمتين الأماميتين ممدودتين وهما تهويان إلى الأرض . وهذا خطأ فى الواقع ، لأن هذه الحركات لا يمكن أن تحدث فى وقت واحد ، ولـكنه صواب إذا ما لوحظت الأجزاء على التتابع ، وهذا الصدق وحده هو الذى يعنينا لأنه هو الذى نراه ونتأثر به .

لاحظ إلى ذلك أن المصورين والمثالين الذين عند ما يؤلفون بين الأوجه المختلفة لحركة ما فى صورة أو تمثال معين لا ينزلون فى ذلك على حكم العقل أو المهارة الفنية . ولـكنهم يعبرون بكل بساطة عما يشعرون به فترى عقولهم وأيديهم كأنما تتساق فى اتجاه الحركة فيعبرون عن تطورها بالغريزة .

ونرى هنا — كما هو الحال فى كل ميادين الفن — أن الإخلاص وحده هو القاعدة الوحيدة »

صمتُ برهة طويلة أفكر فيما قاله لى إلى أن قطع صمتى بسؤاله : « ألم أقنعك ؟ »

نعم ، بالطبع . ولـكنى عند ما أتأمل تلك المعجزة ، معجزة التصوير أو النحت التى يمكنها أن تجمع فى جسم واحد حركة تدوم عدة لحظات ، أقول عند ما أتأمل ذلك أسائل نفسى إلى أى حد يتسنى للتصوير والنحت أن ينافسا الأدب — والمسرح بوجه خاص — فى تسجيل الحركة . ولا يسعنى إلا أن أقول فى صراحة إننى أميل إلى الاعتقاد أن مثل هذا التنافس لا يمكن أن يجرى لشوط بعيد ، وأن رجال الريشة والإزميل لأشد قصوراً فى هذا الميدان من رجال القلم ، فقال رودان :

ليس قصورنا كبيراً كما تظن . وإذا كان باستطاعة التصوير والنحت أن يهبا الأجسام الحركة فى مقدورهما أن يأتيا بأكثر من ذلك ؛ بل ويستطيعان فى بعض الأحوال أن يجاريا الفن الدرامى طريق فى إظهار عدة مناظر متتابعة فى نفس اللوحة أو المجموعة التماثيل » فأجبته :

« نعم . ولـكنهم يدلسون بعض الشىء . لأننى أظنك تتكلم عن تلك الصورة القديمة التى تعرض تاريخا شاملا لشخص معين فتظهره

عدة مرات فى أوضاع مختلفة على نفس اللوحة . فمثلا توجد بمتحف اللوفر لوحة زيتية إيطالية صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر تقص علينا تاريخ أوروبا على هذه الوتيرة . فترى فيها أول ما ترى الأميرة الصغيرة تلعب فى حقل نضير مع أترابها للوانى يعاونها على امتطاء صهوة الثور « جوبيتر » ، ثم تراها بعد ذلك مروعة وقد اختطفها الإله وغاص بها فى لجج اليم » . فأجاب رودان :

« هذه طريقة بدائية على الرغم من أن بعض الفحول من الفنانين مارسوها . فمثلا عالج فيرونيز Veronese قصة أوروبا هذه بنفس الطريقة كما يتضح من لوحته الموجودة بقصر الدوقية بمدينة البندقية . ولكن على الرغم من هذا النقص فلوحة كالياري Caliari معجبة . وأنا لم أشر بشئ إلى مثل تلك الطرق الصبيانية لأنى لا أوافق عليها كما يمكنك أن تدرك ذلك . ولكى أجعل نفسى أكثر جلاء ووضوحا يتحتم على أن أسألك أولاً عما إذا كنت تذكر لوحة واتو Watteau المسماة « ركوب السفينة إلى جزيرة سايتيرا » فقلت :

« إنى لأذكرها تماما كما لو كانت نصب عينى الآن » .

« إذاً فسوف لا أجد صعوبة فى الإفصاح عن نفسى . فاذا تذكرت رأيت أن الحركة فى تلك اللوحة الفذة تبدأ فى الأمام إلى اليمين وتنتهى فى الخلف إلى اليسار . وتلاحظ أول ما تلاحظ فى مقدم اللوحة شخصين هما سيدة فاتنة وعشيقها المتيم جالسين تحت الظلال الوارفة قريبين من تمثال نصفى لسايبريس Cypris منمق بأضافير الورد وإكليله ، يشتمل الرجل بعباءة مطرزة عليها قلب نفذ فيه سهم . وفى ذلك إشارة لطيفة إلى ما سوف يتجشمه فى هذه المرحلة الغرامية . تراه راكعاً بجانبها يستميلها ويستعطفها فى حرارة ولكنها تقابل ضراعاته بفتور ربما كان مصطنعا ، وتتظاهر كما لو كانت متشاغلة عنه بمعاينة التهاويل التى على مروحتها . ويجلس بالقرب كيوپيد Cupid صغير فوق كنانته وقد تعرى أكثره . يرى أن المرأة قد أمعنت فى التدلل والتمنع فيجاذبها قيدها ليستلين فؤادها . وإلى هنا لا تزال المرحلة الغرامية فى مبتداها . هذا هو المشهد الأول . وهاك الثانى : ترى إلى اليسار من ذلك زوجاً آخر . أما السيدة هنا فتقبل يد حبيبها الذى يعاونها على النهوض ، وقد أدارت ظهرها إلينا وتدلت من رأسها ذؤابة من تلك الذوائب الشقراء الذهبية التى يصورها واتو برشاقة ساحرة . أما المشهد الثالث فيقع إلى أبعد من ذلك بقليل . ففيه يضع المحب ذراعه حول خصر مالكة لبه ليجذبها إليه ويسير بها فتتلفت إلى قرنائها الذين يحيرها تخلفهم ، ولكنها لا تلبث أن تنقاد فى غير ما تأب .

والآن ينزل المحبون إلى الشاطئ ويندفع الجميع إلى السفينة ضاحكين ولم يعد الرجال بحاجة إلى التوسل والتضرع ، وقد تشبثت السيدات بأذرعهم .

وأخيراً يعاون المحبون فاتناتهم على الاستواء على ظهر السفينة الصغيرة التى تتأرجح على صفحة الماء كأنها الحلم الذهبى وقد ازينت بالأزهار وشارات خافقات من الحرير الأحمر . أما الملاحون فكبون على مجاديفهم وهم على وشك التجديف وثمت آلهة الحب الصغيرة تتقدمهم محمولات على أجنحة النسيم كأنما تقود المحبين إلى الجزيرة اللازوردية التى تلوح فى الأفق » .

« ألاحظ يا أستاذ أنك تحب هذه اللوحة لأنك تذكر كل دقائقها » .

« انها لمتعة لا يستطيع المرء أن ينساها . ولكن هل لاحظت تطورات هذا التمثيل الصامت ؟ خبرنى بربك الآن : أيها أصدق فى تسجيل الحركات أهو المسرح أم التصوير ؟ حقاً إنه ليصعب على المرء أن يقطع بقول فى هذا الأمر . فها أنت ترى أن الفنان لا يستطيع — إذا ما أراد — أن يصور الحركات العارضة فقط بل ويمثل فصلاً طويلا على حد تعبير الفن الدراماطيق .

وليس عليه لإدراك النجاح سوى أن يضع أشخاصه بحيث يرى الناظر أول ما يرى منها أولئك الذين يبدأون العمل ، ثم الذين يمضون به ويستمرون فيه . وأخيراً يرى أولئك الذين ينهون ذلك العمل . أتريد مثلا فى النحت ؟ » وعند ذلك فتح كتاباً أخذ

يبحث فيه هنيهة ثم سحب منه صورة فوتوغرافية وقال :

« هاك المارسليز الذى تحته رود ليوضع فى جانب من نصب « قوس النصر » ، ترى « الحرية وقد لبست درعا نحاسية تشق الهواء بأجنحة منتشرة وترعد فى صوت هائل: «إلى السلاح أيها المواطنون » . ترفع يدها اليسرى عالية تستحث بها الأبطال من حولها ، وتمسك بالأخرى سيفاً تصوبه نحو الأعداء . إنها بلاريب أول ما تشاهد إذ أنها تسود المجموعة كلها . أما ساقاها المنفرجتان

تمثال المارسليز (صنع المثال رود)

اللتان تجعلانها تبدو كأنها تجرى فتخالها نغمة أضيفت إلى هذه الأنشودة الحربية السامية . وكأنى بصوتها القوى المنبعث من فمها الحجرى يشق صماخ الأذن ، فما لك من سماع صوتها من بد ، ولم تكد ترسل دعوتها إلى الحرب حتى تدافعت الأبطال إلى الأمام . فهذا غوطى كأن شعره لبدة الأسد يلوح بخوذته عالياً كأنه يحيى الآلهة وقد وقف ابنه الفتى الصغير إلى جانبه ممسكا بقبضة سيفه يستعطفه ليرافقه إلى ساحة الوغى وقد بدا عليه كأنه يقول : « أنا قوى كما يجب يا أبتاه ، إننى رجل ، أريد أن أذهب معك ، فيقول له أبوه وقد حدجه بنظرة عطف وخيلاء : «تعال» .

أما المشهد الثالث فيتكون من محارب قديم يترنح تحت أعباء عتاده ويجهد للحاق بهم ، إذ يتحتم على كل من يشعر من نفسه القوة أن يذهب إلى ميدان القتال . ثم هذا رجل هم قوست السنون ظهره يتبع الجند بأدعيته وصلواته ، وتدل إشارة يده على أنه يعيد عليهم نصائحه التى استخلصها لهم من تجاربه الخاصة .

ويتكون المشهد الرابع من قواس يثنى ظهره المتعضل ليشد عليه سلاحه ، ومن بوق يرسل نداءه المثير إلى الجحافل ومن بنود تخفق ورماح مشرعة إلى الأمام . لقد صدر الأمر وابتدأ الكفاح فعلا .

ونرى هنا أيضاً رواية مثلت أمام أعيننا ؛ ولكن بينما لوحة « ركوب السفينة إلى سايتيريا » تذكر المرء بهزليات ماريفو marivaux فإن المارسليز يذكره بمآسى كورنيل Corneille وإنى لا أدرى أى الاثنتين أفضل ، إذ أرى فى إحداهما من الروعة والعبقرية بقدر ما أراه فى الأخرى » ثم قال بعد أن حدجنى بنظرة تحدّ ماكرة :

« أعتقد أنك سوف لا تقول بعد الآن بأن لا قيل للتصوير والنحت بمنافسة المسرح » فقلت له : « طبعاً كلا » !

وفى تلك اللحظة لمحت فى الكتاب الذى أعاد إليه صورة المارسليز صورة شمسية أخرى لتمثاله البديع المسمى « رهائن كاليه » ثم قلت :

« ولكيما أبرهن لك على أنى أفدت من تعاليمك دعنى أطبقها على عمل من أجل أعمالك ؛ لأننى أرى انك أنت نفسك تطبق تلك القواعد التى كشفت لى عنها . فهنا فى تمثالك رهائن كاليه[1] ، Burghers of Calais أستطيع أن أرى منظراً متتابعاً كالذى ذكرت من أعمال واتو وروود . فالشخص الذى فى الوسط هو أول ما يسترعى النظر . وما من إنسان يشك فى أنه (يوستاك سنت بيير) . إنه يحنى رأسه الجليل الذى يكلله شعر أشيب طويل .

(١) الأصل فى معنى كلمة Burghers هو « نواب » ولكنى استصوبت وضع كلمة « رهائن » بدلا منها .

ليس متردداً ولا خائفا ، يتقدم بخطى ثابتة وقد أُسبلت عيناه فى صلاة صامتة . وإن كان يترنح قليلا فإنما ذلك من جراء الشدائد التى عاناها أثناء الحصار الطويل . إنه هو الذى يُلهم الآخرين . إنه أول من تقدم من الرهائن الستة الذين يتوقف على اعدامهم انقاذ أبناء بلدتهم من المذبحة المنتظرة ، وذلك حسبما شرط الغزاة . أما المواطن الذى إلى جانبه فليس أقل منه شجاعة . ومع أنه لا يجزع لمصيره الخاص إلا ان شروط تسليم المدينة يسب له ألماً ممضاً . وفى حين يقبض بيده المفتاح الذى يتحتم عليه تسليمه للانجليز تراه يعلب كل جسمه كيما يجد من نفسه القوة على احتمال هذ الذل المحتوم . وإلى جانب هذين . وفى مستواهما ، تجد رجلا أقل شجاعة منهما لأنه يسرع فى مشيته فتقول عنه : أما وقد وطن نفسه على التضحية فإنه يتوق إلى تقصير الوقت الذى بقى على استشهاده .

ومن وراء هؤلاء يأتى رهينة آخرَ ممسكا رأسه بيديه ومسلماً نفسه لياس عنيف ، ربما كان يفكر فى زوجه وأولاده أو فى أحبائه أو فيمن سيشق برزئه من مماته .

وثم رهينة خامس يحرك يده أمام عينيه كأنما يحاول بذلك أن يبدد كابوساً مرعباً أناخ على روحه ... إنه يتعثر ، ولا غرو فقد روّعه الموت .

وأخيراً نرى الرهينة السادس وهو أصغرهم جميعاً . تراه كأنه متردد غير مستقر ، يقبض أسارير وجهه همٌ ناصب . أهو طيف حبيبته الذى يستحوذ على أفكاره ؟ ولكن رفقاءه يتقدمون وها هو ذا يتبعهم مادا عنقه كما لو كان يسلمه إلى سيف القدر .

ومع أن هؤلاء الثلاثة أقل شجاعة من الثلاثة الأول فإن نصيبهم من التقدير والإعجاب لا يقل بحال من الأحوال عنهم ، لأن إخلاصهم أدعى إلى التقدير والثناء . ويكلفهم أكثر مما يكلف الآخرين .

وهكذا ينسى المرء ان يتابع بدقة فصلا تمثيلياً فى رهائن كاليه ، ذلك التمثيل الذى هو نتاج شعور وتأثر كل فرد منهم بنفوذ يوستاك دى سنت بيير ومقدار اقتدائه به والنسج على منواله فيراهم المرء وقد أسلموا قيادهم إليه رويدا رويدا وقد قرر الواحد تلو الآخر أن يتقدم منه إلى الموت ليدفع ثمن مدينتهم .

ولا ريب أن فيما ذكرت أعظم إثبات وتعضيد لرأيك عن قيمة الحركة والناظر فى الفن » فأجاب رودان :

لو لم يكن فيما تراه فى عملى شىء من المثالاة لجزمت بأنك أدركت ما هدفت إليه تمام الإدراك . لقد قدرت (رهائنى) كل التقدير ورتبتهم بحق تبعاً لمقدار بطولتها . ولكيما أظهر هذه الحال بأجلى مظهر أبديت رغبتى التى ربما تعلمها بأن تثبت تماثيلى الواحد وراء الآخر على بلاط الميدان قبالة سراى بلدية كاليه لتكون أشبه بحلقة حية من الآلام والتضحية . لو أنها وضعت كذلك لبدت كأنها تخطو من دار البلدية إلى معسكر ادوار الثالث ، ويشعر سكان كاليه اليوم عندما يخالطونها فى غدوهم ورواحهم شعوراً عميقاً بالتضامن أو الاتحاد التقليدى الذى يربطهم بأولئك الأبطال ، ولكان أثر ذلك بالغا فيما أعتقد . ولكنهم رفضوا مقترحى وأصروا على وضع التماثيل على قاعدة قبيحة بقدر ما هى غير لازمة . إنهم كانوا مخطئين ، وأنا متأكد مما أقول » . فقلت «وا أسفاه . كأنما قدر على الفنان دواما أن يجارى الأفكار السائدة . وما أسعده لو استطاع أن يحقق طرفاً من أحلامه الجميلة » .

دكتور محمد مهدت

ليلى والعبيط

ويحيى

هى قصـــة اليـــوم
قصـــة النفس الحائرة
قصة الأديب الشقى السعيد
قصـــة الحياة كما هى
قصـــة الضحك والبكاء

دار المعارف للطباعة والنشر فى ٢٧٢ صفحة
ثمنها ٢٥ قرشاً — تولى نشرها المؤلف

تطلب من : مكتبة المعارف ، والنهضة ، والانجلو ، والأهلية ، والتجارية ، وغيرها .
المؤلف : الياس عكاوى ١٧ شارع فؤاد الأول القاهرة
تليفون ٤٣٩٠٩